

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

الْقِصَصُ الدَّيْنِي

عُمَرُ
وَسَعِيدُ ابْنِ زَوْدٍ

عبد الحميد جودة السحار

٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا
عِبَادِي الصَّالِحُونَ » .

(قرآن کریم)

هَزَمَ الْفُرسُ الْمُسْلِمِينَ فِي مَوْقِعَةِ الْجِسْرِ ، وَلَفَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَعَزَّ ذَلِكَ عَلَى عُمَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَنَادَى فِي الْمَدِينَةِ : «الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ» ، وَكَانَ هَذَا هُوَ النَّدَاءُ كُلَّمَا أَرَادَ الْخَلِيفَةُ أَنْ يَجْمَعَ الْمُسْلِمِينَ لِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ عَازِمٌ عَلَى أَنْ يَخْرُجَ بِنَفْسِهِ لِقِتَالِ الْفُرسِ ، فَقَالَ النَّاسُ :

— سِرُّ وَسِرُّ بِنَا مَعَكَ .

فَقَالَ لَهُمْ عُمَرُ :

— اسْعِدُوا وَأَعِدُّوا ، فَإِنِّي سَائِرٌ إِلَى أَنْ يَجِيءَ رَأْيٌ هُوَ أَمْثَلُ (الْفَضْلُ) مِنْ ذَلِكَ .

وَأَرْسَلَ عُمَرُ إِلَى أَهْلِ الرَّأْيِ وَالشُّورَى ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ :

— مَا تَرَى يَا أَبَا الْحَسَنِ ، أَسِيرُ أَمْ أَبْعَثُ ؟

— سِرُّ بِنَفْسِكَ ، فَإِنَّهُ أَهْتَبُ لِلْعَدُوِّ ، وَأَرْهَبُ لَهُ . وَدَخَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ :

— أَسِيرُ أَمْ أَبْعَثُ ؟

- قَدِيتَ بِأَبِي وَأُمِّي ، أَقُمْ وَأَبْعَثْ ، فَإِنَّهُ إِنْ انْهَزَمَ جَيْشُكَ ،
فَلَيْسَ ذَلِكَ كَهَزْمِكَ ، وَإِنَّكَ إِنْ تَهَزَّمَ أَوْ تَقْتُلَ ، يَكْفُرُ
الْمُسْلِمُونَ ، وَلَا يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَبَدًا .
وَخَرَجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَدَخَلَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، فَقَالَ لَهُ
عُمَرُ :

- يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، أَشِيرُ عَلَى ، أَسِيرُ أَمْ أَقِيمُ ؟
- أَقُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَبْعَثِ الْجِيُوشَ ، فَإِنِّي لَا أَمْنُ إِنْ أَتَى
عَلَيْكَ آتٌ ، أَنْ تَرْجِعَ الْعَرَبُ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَلَكِنْ أَبْعَثِ
الْجِيُوشَ ، وَدَارِكُهَا بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَأَبْعَثِ رِجَالًا لَهُ تَجَرِبَةٌ
بِالْحَرْبِ وَمَضْرِبُهَا .
- وَمَنْ هُوَ ؟

- عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ .
- فَالْقَلَّةُ وَكَلِمَةُ ، وَذَاكِرُهُ ذَلِكَ ، وَانْظُرْ أَتَرَاهُ مُسْرِعًا إِلَيْهِ أَمْ

لَا ؟

وَخَرَجَ عَثْمَانُ وَقَابَلَ عَلِيًّا . فَذَاكِرُهُ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ عَلِيٌّ أَبَى
ذَلِكَ وَكَرِهَهُ ، فَعَادَ عَثْمَانُ وَأَبْلَغَ عُمَرَ رَفَضَ عَلِيٍّ ، وَاجْتَمَعَ

أهل الرأي ثانية ، يبحثون فيمن يؤلونه حرب الفرس ، فقال

بعض الحاضرين :

- قد وجدته .

- فمن ؟

- الأسد عاذيا .

- من هو ؟

- سعد بن أبي وقاص .

فقال عمر :

- أعلم أن سعدا رجلا شجاعا ، ولكنني أخشى أن لا يكون

له معرفة بتدبير الحرب .

فقال عبد الرحمن بن عوف :

- هو على ما تصف من الشجاعة ، وقد صحب رسول

الله صلى الله عليه وسلم وشهد بئرا ، فاعهد إليه عهدا ،

وشاورنا فيما أردت أن تحدث ، فإنه لن يخالف أمرك .

أصبح سعدُ بنُ أبي وقاص قائدَ الجيوشِ الذَّاهِبَةِ لِقِتالِ
 الفُرس ، فصارَ حتّى نزلِ القادِسيّة ، فأسرعَ أهلُ العِراقِ إلى
 كِسْرَى يَزْدَجِرْد ، يستغيثونه ويخبرونه بنزولِ العرب ، وتفرّق
 سراياهم للغارة ، وطلبوا منه النجدةَ والعون ، فأرسلَ في
 استدعاءِ رُسُتَمَ قائدِ جيوشِهِ ، وقالَ له :

— جاءَ العربُ لمناجرتنا في غُفْرِ دارِنا ، وإني رأيت ، وأنتَ
 قائدُ قُوادِ الدَّولة ، وصاحبُ الرأى فيها ، أن أوجهَكَ في هذا
 الوجه ، فأنتَ رجلٌ فارسٌ اليوم ، وترى ما حلَّ بالفُرس ، فما
 لم يأتِهِمْ مثله .

وأخذَ رُسُتَمُ يستعدُّ لِقِتالِ المسلمين ، فجعلَ على مقدَّمَتِهِ
 الجالينوسَ في أربعين ألفاً ، وعلى ميمنَتِهِ الخُرَّمِزانَ ، وعلى
 ميسرَتِهِ مَهْرانَ .

وتقدَّمتْ جيوشُ رُسُتَمَ حتّى نزلت بسباط ، بين المدائنِ
 والقادِسيّة ، بمائة ألفٍ مقاتلٍ أو يزيدون ، وراحَ سعدٌ ينتخبُ
 من يرسلُهُم إلى يَزْدَجِرْد ، ليدعوهُ إلى الإسلامِ أو الجزية ، قبلَ

أن يأمرَ بالحرب ، فانتخب نفرا من قادة المسلمين ، وأرسلهم إلى رُستم .

دخل الوفدُ الإسلاميُّ على رستم ، وطلبوا منه مقابلةَ يَزْدَجِرْد ، لعرض شروطهم عليه قبل القتال ، ولما كان رُستم لا يرغب في القتال ، فقد أرسلهم إلى المدائن ، عاصمةِ فارس ، فساروا في طرقاتها مرفوعي الرؤوس ، وخرج النَّاسُ ينظرون إلى أشكالهم وأرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم بأيديهم ، والنَّعال في أرجلهم ، وخبولهم الضعيفة تخبط على الأرض بأرجلها ، وجعل الناس يتعجبون منهم غايةَ العجب ، ويتساءلون : كيف تمكَّن مثل هؤلاء من قهر جيوشهم مع كثير غندها وعُددها !!

جلسَ الملكُ يَزْدَجِرْد على عرشه ، يحوطه خدمه وحشمه وأعيانُ القوم ، وأذن للوفدِ بالثول ، فدخلوا جميعا شامخي الأنوف ، وجرىء بالترجمان ، فقال له يَزْدَجِرْد :

- سلَّهم ما جاء بهم ؟ وما دعاهم إلى غزونا ، والتَّوَعَّل بلادنا .

— نحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن وقبح
القيح كله ، فإن أبيتم ، فأمر من الشر هو أهون من آخر شر
منه : الجزاء ، فإن أبيتم فاللناجرة (القتال) ، فإن أجيتم إلى
ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم عليه ، على أن
تتحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم ، وشأنكم وبلاذكم ، وإن
انقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم .

وثار يزدجرد ، فما كان يُصدق أن العرب ، الذين كانوا
أشقى أمة في الأرض ، قبل أن يُرسل الله إليهم محمد بن عبد
الله ليرفعهم من الدل إلى الكرامة والعزة ، يعرضون عليه أن
يترك دينه ، ليدخل في دين جديد ، أو يدفع لهم الجزية ،
أو يستعبد للحرب والقتال ، فقال في غضب :

— لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي .

خرج رُستم من مُعسكره ، وسار حتى بلغ قنطرة
القادسيّة ، فتأمل جيش المسلمين ، فرأى عسكراً كثيراً ،
فأحسّ ضيقاً ، وأقبل الليل ، فدخل سريره لينام ، ولكنّ النوم
جافاه ، وأخذ يتقلب في فراشه ضجراً ، وهو يفكر في العرب
الذين جاءوا لقتالهم . وأخيراً نام ، فرأى فيما يرى النائم
ملكاً وأعرابياً يدخلان عسكر الفرس ، وعلم أنّ الأعرابي هو
عمرُ خليفة المسلمين ، ثم رأى الملك يتجه إلى سلاح فارس
فيخيمه ثم يجتمع ، ويدفعه إلى عمر ، وقام من نومه مرعوباً ،
ولما هدأ نام ثانية ، فرأى في الحلم أنّ أعرابياً يدخل عليه
ويذبحه ، فهبّ من نومه مغزوعاً .

وجاء يوم القتال ، فأرسل رستم رسوله إلى سعد ابن أبي
وقاص ، يقول له :

— إما أن تعبر إلينا أو تزكنا نعبّر .

فقال له سعد :

واستمرَّ مَنْ فِي الْمَيْدَانِ يَصِفُ مَا يَحْدُثُ أَمَامَهُ ، فَجَلَعَ الْإِنْبَاءُ
الْمَلِكُ يَزْدَجِرُّذُ وَهُوَ فِي قَصْرِهِ .

وهتف سعد :

— اللَّهُ أَكْبَرُ .

وَكَثُرَ الْمُسْلِمُونَ حُلْفَهُ ، وَتَرَاخَفُوا لِقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
صَفًّا ، كَأَنَّهُمْ بِنَاءٌ مَرْصُوصٌ .

راح المسلمون يقطعون القَيْلَةَ ، وَلَكِنْ الْقَيْلَةُ كَانَتْ تُشْعِ
الْقَوْضَى بَيْنَهُمْ ، وَصَاح صَاح :

— يَا مَعْشَرَ الرُّمَّةِ . سَدُّوا سِهَامَكُمْ إِلَى رُكْبَانِ الْقَيْلَةِ .

وَأَخَذَتْ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ تَطَايُرَ فِي الْجَوِّ ، وَتَثَبَتْ فِي صُدُورِ
الرُّجَالِ الرَّاكِبِينَ الْقَيْلَةَ ، وَتَسَلَّلَ بَعْضُ الْعَرَبِ حَتَّى أَصْبَحُوا
خَلْفَ الْقَيْلَةِ ، فَأَخَذُوا بِأَذْنَابِهَا ، وَقَطَّعُوا الْحَبَالَ الَّتِي تُثَبَّتُ
التَّوَابِيَتْ عَلَى ظُهُورِهَا ، فَسَقَطَ مِنْ فِي التَّوَابِيَتْ ، وَرَاحَتْ
الْقَيْلَةُ تَدُوسُ مَنْ وَقَعَ ، وَشَاعَ الْاضْطِرَابُ فِي نَفُوسِ الْفُرْسِ ،
وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ ، حَتَّى إِذَا مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، هَدَأَتِ الْمَعْرَكَةَ ،
ثُمَّ تَوَقَّفَ الْفَرِيقَانِ عَنِ الْقِتَالِ ، وَرَاحَا يَسْتَعِدَّانِ لِمُتَابَعَتِهَا مَعَ
الصَّبَاحِ .

وأشرقت الشمس ، ووصل مدد المسلمين ، وهجموا على
 القبيلة يسدّدون رماحهم إلى عُيونها ، فكانت القبيلة تضرب
 على غير هدى ، فإذا اتجهت إلى صفوف المسلمين نخسوها ،
 فتعود إلى صفوف الفرس فينخسونها ، واستمرت كذلك بين
 العسكرين ، وأخيرا يعمت صوب النهر وتزلت فيه ، وغلا
 الميدان من القبيلة ، فحمد المسلمون الله ، وراحوا يقاتلون
 قتال الأبطال الصناديد . واستمرت المعركة طوال الليل ،
 وبدأ الضعف يدب في جيش رستم ، فراح المسلمون يقتلون
 الفرس . ورأى رستم نفسه أمام بطل من أبطال المسلمين ،
 والموت يطل من سيفه ، فجرى رستم حتى بلغ النهر ، فألقى
 نفسه فيه ، وأخذ يسبح ، فافتحم المسلم النهر ، وأمسك
 برستم وخرج به إلى الشاطئ ، ثم تناول سيفاً وضربه به ، ثم
 صاح :

- إلى ... إلى ! قتلت رستم ورب الكعبة ... قتلت رستم .
 رأى الفرس ما حل برستم ، فدب الدعر بينهم ،
 وانهزموا ، وراحوا يعبرون النهر وسيوف المسلمين تعمل في

فنزل الراكب عن ناقته ، وتقدم من عمر ، وقال :

- فهلاً أخبرتني رحمتك الله أنك أمير المؤمنين ؟

فقال له عمر :

- لا عليك يا أخي .

- أنا سعد بن عُمَيْلَةَ الْفَزَارِيُّ ، قد بعثني سعدٌ إليك

بكتاب .

فتناول عمر الكتاب ، وذهب إلى المسجد ، وقام في

الناس ، فقرأ عليهم .

« أما بعد ، فَإِنَّ اللَّهَ نَصَرَنَا عَلَى أَهْلِ فَارَس . »

فَسَرَتْ فِي الْمَدِينَةِ مَوْجَةً غَيْطَةٍ وَسُرُور .